محمد بن عبد الله التنسي (ت899هـ/1494م) الفقيه التاريخي.

أ. محمد بوشقيف*

مقدمة: يُعد القرن التاسع الهجري (15م) ببلاد المغرب الأوسط أوفر انتاج الجزائر في المجال الفكري والعلمي، وأزهى عصورها، ومَرَدُ ذلك يعود إلى كثرة العلماء الذين نبغوا فيه، وكذا المؤلفات التي أثروا بها سوق العلم، حيث أن عدد هؤلاء العلماء المنتجين خلال هذا القرن يفوق عدد الذين سوف يظهرون في القرون اللاحقة[1]. هذا على الرغم بما امتاز به هذا القرن من انحطاط سياسي ميز دولة بني زيان من تفكك وصراع على السلطة، وكذا استمرار الهجومات الحفصية عليها، أما عن الحياة العلمية فكانت مزدهرة ويظهر ذلك كما أشرنا سالفا إلى ظهور هؤلاء العلماء دفعوا بها إلى الأمام الذين ذاع صيتهم في مختلف أمصار العالم الاسلامي آنذاك كسعيد العقباني (ت811هـ/1408م)، وابن مرزوق الحفيد (ت842هـ/1439م)، وأبي عبد الله الحباك (ت867هـ)، وعبد الرحمن الثعالبي (ت875هـ/1470م)، وأبي زكريا المازوني (ت883هـ/1478م)، أحمد بن زاغو (ت845هـ/1441م)، ومحمد بن يوسف السنوسي (ت895هـ/1490م) وعبد الكريم المغيلي (ت909هـ/1503م)، وأحمد بن يحي الونشرسي (ت914هـ/1508م)، ومحمد بن عبد الله التنسي (ت899هـ/1494م) بفضل ما ألفه في علم التاريخ هذا العلم الذي حظي باهتمام علماء الإسلام الأوائل اهتماما كبيرًا، ويعود سبب ذلك إلى اعتباره من العلوم النقلية الشرعية نظرا لارتباطه الوثيق بعلم الحديث من جهة، وميلهم للاطلاع على ماضي الأمم وحوادث الزمان من جهة ثانية، إضافة إلى عنايتهم بعلم الأنساب.[2] وبعد هذا بدأ علم التاريخ يستقل بأسلوبه ومنهجه الخاص عن علم الحديث حتى أصبح علما قائما بذاته، فألف علماؤه في الأخبار وأكثروا في جمع تواريخ الأمم والدول فبرز فيه مؤرخون أجلاء كابن جرير الطبري (ت310هـ/923م)، وابن الأثير (ت620هـ/1233م).[3]

* – أستاذ التعليم العالي في تاريخ المغرب الإسلامي– قسم التاريخ – جامعة أبو بكر بلقايد–تلمسان.

وبعد هذا ظهرت مؤلفات لها صلة وثيقة بعلم التاريخ ككتب السير، والمغازي، وكتب الأنساب، والأمم، والملل والنحل، والتراجم، والطبقات، والحوليات والتواريخ المحلية والخطط والمناقب والفهارس والوفيات وغيرها من المؤلفات ذات الصلة بعلم التاريخ.[4]

وانطلاقا من هذا سار مؤرخوا المغرب الاسلامي في بداية الأمر على نفس نهج مؤرخوا المشرق في مجال تدوين التاريخ إلى أن ظهرت مدرستهم الخاصة بهم مع ابن عذاري المراكشي (عاش في القرن 7هـ/13م)، وعبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ/1406م) الذي نقد المؤرخين السابقين له.[5] وكان بداية نشاط هذه المدرسة بشكل واضح مع مطلع القرن الثامن الهجري (14م). حيث برز فيها مؤرخون كبار في كل من الأندلس ولمغرب الأقصى والأدنى وفي خضم هذا أنجب المغرب الأوسط (الجزائر) هو الآخر مجموعة من المؤرخين الذين سجلوا تاريخ هذا العصر، والذين سنتطرق إلى واحد منهم عد من أساطين الكتابة التاريخية في الجزائر إلى جانب كل من عبد الرحمن بن خلدون وأخيه يحي وابن مرزوق الخطيب ألا وهو محمد بن عبد الله التنسي الذي سنسلط الضوء على حياته ومؤلفاته في هذه المداخلة باعتباره أحد أعمدة الكتابة التاريخية في الجزائر خلال العصر الوسيط (القرن 9هـ/15م). نظرا لمؤلفه الذي تركه في هذا العلم والذي غطى به أحداث هذه الفترة؛ فمن هو محمد بن عبد الله التنسي؟

هو محمد بن عبد الله بن عبد الجليل[6]، التنسي[7]، الأموي[8] المعروف بالحافظ والأديب والشاعر،[9] والفقيه التاريخي.[10]

أما تاريخ ولادته فإن كتب التراجم المتوفرة لدينا لا تذكره تماما، إلا أن الباحث المرحوم محمود بوعياد في تحقيقه لكتاب نظم الدر والعقيان لصاحب الترجمة، رجح تاريخ ولادته الى سنة (820هـ/1418م) [11]، معتمدا في ذلك على ما أورده السخاوي في ضوئه.

التكوين العلمي للتنسي:

لا تمدنا كتب التاريخ بمعلومات عن طفولة التنسي، إلا أنه ولد وعاش بتلمسان في ظل الدولة الزيانية التي كانت في قمة ازدهارها العلمي وبداية انحطاطها السياسي الذي ميزها بداية من العقد الثاني للقرن 9هـ/15م، كما أننا لا نعرف شيئا عن حالته العائلية وهذا يبين أن أباه كان من عامة الناس. إلا أن ابنه تمكن كغيره من أبناء عصره من الدخول والتدرج في نمط التعليم

السائد آنذاك، وأخذ العلوم والمواد التي كانت تدرس بالمراكز التعليمية كالكتاتيب والمساجد والمدارس التي انتقل إليها لاستكمال تكوينه العلمي.

هذا وقد تطرق أصحاب كتب التراجم خاصة ابن مريم في البستان إلى ذكر أهم العلماء الذين أخذ عنهم الحافظ التنسي وهم مجموعة من العلماء البارزين الذين قادوا الحركة العلمية بالمغرب الأوسط خلال القرن التاسع عشر الهجري، الخامس عشر الميلادي، ومن أبرز هؤلاء العلماء الذين أخذ عنهم نورد:

–محمد بن مرزوق الحفيد (842هـ/1498م)، أخذ عنه الحافظ التنسي علوما كثيرة خاصة الدينية كالتفسير والفقه، وأصول الفقه والحديث التي اشتهر بتدريسها في تلمسان.[12]

–أحمد بن زاغو التلمساني (ت845هـ/1441م)، أخذ عنه التنسي كغيره من علماء ذلك العصر العلوم الدينية من فقه، وتفسير وتصوف وحديث التي كان ابن زاغو بارعا في تدريسها آنذاك.[13]

–محمد بن إبراهيم بن الإمام(846هـ/1442م)[14]، هو الإمام محمد بن إبراهيم بن الإمام أبي الفضل، كانت له قدم راسخة في البيان والتصوف والأدبيات، والشعر، والطب.[15] ونقل عنه الونشريسي في معياره الكثير من وفتاويه [16].

–الحسن بن مخلوف أبركان: أخذ عنه التنسي خاصة تلك العلوم التي أتقنها، كالتصوف، والحديث والفقه [17].

تلامذة التنسي: لا يمكننا بالضبط تحديد متى انتقل التنسي من مرحلة التحصيل العلمي إلى مرحلة التصدر للإقراء والتأليف. حيث كان يدرس بالجامع الأعظم بتلمسان وكذا مدارسها المشهورة خاصة التاشفينية واليعقوبية. إضافة إلى حضوره مجالس السلاطين العلمية التي امتازت بمناظرات العلماء في قضايا ذلك العصر وكذا التباري بنظم الشعر والنثر في هذه المجالس.

–لهذا تتلمذ على يديه الكثير من طلبته المشهورين كما سنبين ومرد ذلك يعود أساسا إلى ما امتاز به التنسي من التضلع في العلوم والآداب خاصة علم الحديث والتاريخ. ولا يمكننا استقصاء جميع هؤلاء الطلبة لذا سوف نقتصر على أشهرهم الذين يمكن القول أنهم شكلوا أهم علماء المغرب الأوسط في النصف الثاني من القرن 9هـ/15م ومنهم:

–أحمد البرنسي الشهير برزوق (ت889هـ/1484م) أخذ عن الحافظ التنسي، خاصة في العلوم ذات الصلة بالتصوف والحديث. [18]

–أحمد بن داود الأندلسي [19]، فقيه وكاتب، إرتحل مع أبيه علي القلصادي صاحب الرحلة من غرناطة إلى تلمسان بعد سنة (890هـ/1485م)، فأخذ عن شيوخها منهم الحافظ التنسي، وبعد ذلك رحل إلى بلاد المشرق، ولم تذكر كتب التاريخ والتراجم تاريخ وفاته.

–محمد بن صعد (ت901هـ/1496م)، صاحب كتاب"النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب" "وروضة النسرين". [20]

–محمد بن العباس الصغير [21]الفقيه المتصوف الذي برع في العلوم معقولها ومنقولها، الذي قال "لازمت مجلس الفقيه العالم، الشهير سيدي التنسي عشرة أعوام وحضرت إقراءه تفسيرا، وحديثا، وفقها وعربية وغيرها"[22].

مكانة التنسي العلمية بين علماء عصره: أما مكانته العلمية بين معاصريه فكانت مرموقة، وذلك بشهادة تلاميذه الذين أخذوا عنه، فهذا ابن داود الاندلسي السالف الذكر قد وصف شيخه التنسي بـ"بقية الحفاظ وقدوة الأدباء" وذكر التنبكتي، ما قاله ابن داود الأندلسي كذلك في حق شيخه التنسي، قائلا:"لقد ذكر عن الشيخ أحمد بن داود الأندلسي، أنه سئل حين خرج من تلمسان، عن علمائها، فقال: "العلم مع التنسي، والصلاح مع السنوسي، والرئاسة مع ابن زكري." [23]

هذا ووصفه أحمد بن يحي الونشريسي في وفياته "بالفقيه التاريخي الحافظ الأديب الشاعر .."[24].

أما المقري صاحب نفح الطيب فقد أشار إليه بقوله "بشيخ شيوخنا"، ونعته كذلك بحافظ عصره [25].

وذكره الروداني صاحب كتاب "صلة الخلف بموصول السلف"، ضمن سلسلة، الرواة الذين أخذ عن أسانيدهم الحديث النبوي الشريف [26].

الإنتاج العلمي للحافظ التنسي: ساهم التنسي كغيره من علماء عصره في إثراء الحركة العلمية بمختلف المؤلفات وفي مختلف العلوم التي عرفت انتشارا واسعا آنذاك، فقد شارك في العلوم الدينية واللغوية والاجتماعية ومن أهم المؤلفات التي تركها التنسي أو التي ذكرتها الكتب التي ترجمت له نذكر ما يلي:

*في علوم القرآن الكريم: أثرى التنسي هذا الجانب من العلوم وخاصة علم القراءات بمؤلفات ما زالت مخطوطة إلى يومنا هذا منها "رسالة في القراءات" [27]، كما اِعتنى برسم أحرف القرآن، فكتب كتاب "الطراز في شرح الخراز"[28]، وهو شرح لكتاب مورد الظمآن في رسم أحرف القرآن "الذي كان من أهم كتب القراءات المتداولة بالمغرب الأوسط، وهو عبارة عن أرجوزة تتكون من 608 بيت في ضبط القرآن ورسمه، نظمها عبد الله بن إبراهيم الشريشي المعروف بالخراز سنة 703هـ/1303م ، ومن هذا الكتاب اقتصر محمد التنسي على شرح قسم من هذه الأرجوزة التي تشتمل على 454 بيت في رسم أحرف القرآن، و154 بيت للضبط. انطلاقا من هذا قام التنسي بشرح الجزء الخاص بالضبط، كما يدل عنوان تأليفه، ومن خلال تصفحنا لمخطوط الطراز رقم 391 الموجودة بالمكتبة الوطنية الجزائرية، لاحظنا أن التنسي بدأ شرحه بعد الحمد والصلاة على الرسول بقوله: "فإني لما رأيت من تكلم على ضبط الأستاذ عبد الله الشريشي الشهير بالخراز، وجدتهم بين مختصر اختصارًا مخلاً، ومطول تطويلاً مملا فتاقت نفسي إلى أن أضع عليه شرحا متوسطا يكون أنشط لقارئه وأقرب لفهم طالبه، فشرعت فيه مستعينا بالله تعالى وسميته "الطراز في شرح الخراز"[29].

وقد بدأ التنسي شرحه لهذه الأرجوزة بتعريف علمي الرسم والضبط، والتمييز بينهما فقال: "وهو (يعني الخراز) يتكلم عليها (أي مصاحف القرآن) بوجهين أحدهما ما يرجع إلى بيان الزائد، والناقص، والمبدل وغيره، والموصول وغيره[30]، وهو المسمى بعلم الرسم وفيه نظم المؤلف ما تقدم، والوجه الثاني ما يرجع إلى علامة الحركة والسكون والشد والمد والساقط والزائد، وهو المسمى بعلم الضبط وفيه نظم المؤلف هذا الذي تكلم عليه"[31].

ونجد أن التنبكتي لما ترجم للتنسي لم يذكر هذا الكتاب كاملا بل اقتصر قائلا على أن له تأليفا في الضبط[32].

*في علم الحديث الشريف: لقد احتل في هذا العلم محمد بن عبد الله التنسي قصب السبق فعرف لدى علماء عصره بالحافظ[33]، لأنّه كان حافظا لكتب الحديث مثل معجم أصحاب الصدفي للحافظ ابن الأبار، وكذا لكتب أخرى في هذا العلم[34]، كما ذكره المقري في نفح الطيب ضمن مسندي كتب الحديث التي أخذها عن ابن مرزوق الحفيد التي نبغ فيها وقد مدحهما بأبيات شعرية هذا مطلعها:

وقد أجدت جامع البخاري ومسلم عن حائز الفخار

عمي سعيد وهو من يُدعى بالتنسي قد أفاد الجمعا

عن حافظ الغرب الرضا أبيه عن ابن مرزوق عن النبيه[35]

ومما يدعو للتساؤل أن التنسي لم يترك أثرًا في هذا العلم رغم اعتباره عمدة فيه، اللهم إلا كتابا مخطوطا يوجد بمكتبة السليمانية قسم شهيد علي باشا رقم 1340 بتركيا عنوانه "شرح نبذة من أحاديث الرسول" وعدد صفحاته 20 صفحة[36]. هذا وشكل التنسي حلقة من حلقات الإسناد لكتب الحديث في عصره[37].

*في علم الفقه: شارك التنسي في الفقه فقد ذكرت له كتب التراجم "تعليق على مختصر ابن الحاجب"[38]، كما له أيضا فتوى"جواب في قضية يهود توات"[39]، التي أبان فيها عن سعة باعه في الحفظ والتحقيق[40]، وهي عبارة عن فتوى استفتاه فيها الشيخ عبد الكريم المغيلي القاضية بتهديم بيع وكنائس اليهود التي أحدثوها في منطقة توات وهو ما يتنافى والشريعة الإسلامية، وقد انتصر التنسي في هذه الرسالة وشاطر عبد الكريم المغيلي في ثورته على هؤلاء اليهود وتهديم كنائسهم[41].

*في الأدب والشعر: كان التنسي من كبار كتاب عصره وشعراءه، بل هو من أعظم كتاب تلمسان الزيانية وشعراءها خلال القرن 9هـ/15م. وقد بلغ في النظم، كما بلغ في النظر درجة التفوق التي لم يضاهيها فيها أحد في النصف الثاني من هذا القرن. وقد برز التنسي بالأخص في ضرب النثر والشعر الذي حواه كتاب الدر والعقيان وراح الأرواح. ورغم تراجع سوق الشعر في هذه الفترة بالمغرب الأوسط بشكل ملحوظ تاركا المجال لهيمنة العلوم الدينية إلا أن التنسي ترك بصماته فيها بتأليفه لكتاب شمل شعر من سبقه خاصة السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني والذي "راح الأرواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الامداح وما يوافق ذلك على حسب الإقتراح"[42] وتوجد قطع شعرية من قصائد هذا الكتاب في كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري الحفيد.

*التنسي وعلم التاريخ: لقد تراجعت مكانة هذا العلم خلال الفترة السابقة فاسحة المجال لهيمنة العلوم الدينية تعليمًا وتأليفا حتى كاد هذا القرن ينقضي دون وجود مؤلفات في التاريخ لولا ما تركه التنسي الذي يُعد كتابه أهم ما وصلنا من القرن التاسع الهجري المسمى "نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، وذكر ملوكهم الأعيان، ومن ملك منهم في سالف الزمان" والذب عُدَّ من أهم آثاره.

دوافع تأليف نظم الدر والعقيان: يعود سبب تأليف هذا الكتاب من قبل التنسي هو تقديمه إلى السلطان محمد المتوكل (866–873هـ)[43]، على عادة شعراء وعلماء تلك الحقبة كان التنسي يكن لهذا السلطان كل عبارات الاحترام والتقدير، نتيجة ما امتاز به هذا الأخير من الحزم والشجاعة، والكرم وعنايته بالعلم والعلماء، وقد أثبت ذلك في مقدمة مؤلفه هذا قائلا "ولما كنت من جملة من غمرته آلاؤه، وتواترت عليه نعماؤه وألبست منها حللا صافية، وأوردت منها مشارع صافية، نهضت في خدمته بقدر طاقتي، واستعملت في ذلك ما رجوت أن يكون نافقا من بضاعتي، جاهدا في مرضاته خاطري ولساني، وأعملت فيما يزلف لديه ناظري وشأني، جاهدا في ذلك بما في الوسع لدي، عسى أن أقوم ببعض واجب حقه علي..." إلى أن قال: "وسميته نظم الدر والعقان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان"[44].

مضمون كتاب نظم الدر: قسم التنسي مؤلفه "نظم الدر والعقيان" إلى خمسة أقسام ثم جَزَّءَ كل قسم إلى أبوابٍ، فكان محتوى الكتاب على النحو التالي[45]:

القسم الأول: عرف فيه المؤلف بنسب السلطان الزياني محمد المتوكل، كما تطرق بالذكر لأسلافه وبين شرفهم المنتهي لآل البيت خاصة فرع الأدارسة الأشراف، وحوى هذا القسم سبعة أبواب تناول فيها:

الباب الأول: تطرق فيه إلى ذكر نسب السلطان محمد المتوكل.

الباب الثاني: بين فيه فضل وشرف العرب، خاصة قبائل المضرية منهم.

الباب الثالث: ذكر فيه شرف قبيلة قريش، خاصة بيت آل عبد مناف منها.

الباب الرابع: تطرق فيه إلى شرف بني هاشم، خاصة آل عبد المطلب منهم.

الباب الخامس: بين فيه شرف علي رضي الله عنه وبنيه، خاصة منهم الحسن والحسين رضي الله عنهما.

الباب السادس: ذكر فيه شرف عبد الله الكامل وبنيه، خاصة الأدارسة منهم[46].

الباب السابع: تطرق فيه إلى بيان شرف آل زيان وتتبع سلاطينهم الواحد بعد الآخر إلى أن وصل إلى السلطان محمد المتوكل، ويعد هذا الباب أهم هاته الأبواب وهو "بيان شرف بني زيان" الذي كان محل اهتمام من المستشرقين [47]، لما احتوى عليه من أخبار وتفاصيل ذات

أهمية انفرد بها هذا الكتاب عن تاريخ بني زيان، وهذا الباب هو الذي حققه المرحوم محمود بوعياد ونشر بتعاون المكتبة الوطنية الجزائرية والمؤسسة الوطنية للكتاب سنة 1985 [48].

القسم الثاني: عالج فيه ما ينفرد من الخصال وما يليق به من السيرة الحسنة، والأخلاق الحميدة، وهذا القسم يتكون من ثلاثة أبواب هي:

الباب الأول: تناول فيه السياسة وما يتعلق بها في تدبير شؤون الدول.

الباب الثاني: تطرق فيه إلى الصفات التي بها يكتمل الملك، وهي الجود، والشجاعة، والحلم.

الباب الثالث: تكلم فيه عن أهم ركيزة يستند عليها الملك وهي العدل.

القسم الثالث: هذا القسم ذكر فيه التنسي المِلح، والنوادر المستطرفة التي رويت عن الأقوام المختلفة (كالعرب والفرس والهنود، والروم...)، واشتمل هذا القسم على ستة عشر باب:

الباب الأول: ذكر فيه ما روي عن الظرفاء والملوك والخلفاء.

الباب الثاني: تطرق فيه إلى النزر القليل من طرف العلماء.

الباب الثالث: تطرق فيه إلى ذكر محاسن الشعراء والأدباء.

الباب الرابع: تناول فيه بعض طرف المحبين والعشاق.

الباب الخامس: خص فيه بذكر نوادر الأعراب على بداوتهم.

الباب السادس: ذكر فيه بعض الأخبار المتعلقة بأهل الكهانة.

الباب السابع: ذكر فيه بعض من أخبار المغنين.

الباب الثامن: ذكر بعض أخبار النسابين.

الباب التاسع: تناول فيه شيء من أخبار الفقهاء.

الباب العاشر: ذكر فيه شيء من أخبار الطفيليين.

الباب الحادي عشر: ذكر فيه أخبار النساء.

الباب الثاني عشر: ذكر فيه شيء من أخبار الصبيان.

الباب الثالث عشر: تناول فيه أخبار الظرفاء المجانين.

الباب الرابع عشر: ذكر فيه شيء من أخبار الثقلاء.

الباب الخامس عشر: تناول فيه أخبارالمغفلين.

الباب السادس عشر: خص هذا الباب للمضحكات.

القسم الرابع: تناول فيه محاسن الكلام المستعملة في النثر والنظم، ويحتوي هذا القسم على ثمانية أبواب هي:

الباب الأول: ذكر فيه فضل الشعراء وأبرز شيء من فوائدهم.

الباب الثاني: تناول فيه التشريع.

الباب الثالث: خصه للتجنيس.

الباب الرابع: جعله للتوجيه.

الباب الخامس: في الطباق.

الباب السادس:في فراغات النظر.

الباب السابع: في العكس وربما سمى قلبا.

الباب الثامن: في الإقتباس وحقيقته.

القسم الخامس: خصه لذكر المواعظ والحكم الواردة عن مختلف الأمم، وهذا القسم يحوي أربعة أبواب هي:

الباب الأول: تناول فيه الحكم النبوية.

الباب الثاني: تطرق فيه للحكم غير النبوية.

الباب الثالث: جعله للمواعظ النبوية.

الباب الرابع: خص به المواعظ غير النبوية.

–وختم التنسي كتابه هذا برسالة في أصل العرب وبسبع قصائد للسلطان أبي حمو (707 هـ/1307–1308م) [49]

أهمية كتاب نظم الدر في تاريخ الجزائر في العصر الوسيط: لا يمكن للباحث في تاريخ الجزائر في العصر الوسيط أن يستغني عن كتاب نظم الدر في دراسته لأن هذا المؤلف يعد أحد الأركان الثلاثة لدراسة تاريخ هذه الفترة إلى جانب كتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون والبغية لأخيه يحي[50]. فقد عالج التنسي في كتابه هذا فترة سبعين سنة في تاريخ دولة بني زيان أي ابتداءًا من سنة 764هـ/1363م، وتاريخ توقف يحي بن خلدون عن كتاب "بغية الرواد" سنة 777هـ/1376م، نهاية أخبار العبر عن دولة بني زيان عند عبد الرحمن بن خلدون، أي حوالي سنة 796هـ/1393م إلى أن يصل التنسي في كتابه النظم إلى سنة 868هـ/1464م، فلا نجد مصدر آخر تطرق بعد هذا لهذه الفترة وما أعقبها إلا بعض الإشارات لكتب المتأخرين

عن هذا العصر كالمقري صاحب "نفح الطيب والأزهار الرياض"، وما كتبه الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل في كتابه "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم" الذي أشار إلى بعض الأحداث بالمغرب الأوسط بعد زيارته له[51].

كما يدخل هذا الكتاب ضمن كتب التاريخ التي تؤرخ للسلاطين والحكام، وهذا النوع من المؤلفات عرف انتشارا واسعا بالمغرب الاسلامي خاصة بعد التفتت السياسي الذي عرفه بعد انهيار الدولة الموحدية، وظهور الحفصيين بالمغرب الأدنى، وبني زيان بالمغرب الأوسط، والمرنيين في المغرب الأقصى، وبني الأحمر في الأندلس، وانطلاقا من هذا ألف لسان الدين بن الخطيب (ت776هـ/1373م) لسلاطين بني الأحمر بغرناطة كتاب "اللمحة البدرية في الدولة النصرية"، ويحي بن خلدون الذي ألف كتاب "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد"، لسلاطين بني زيان، وابن قنفذ القسنطيني الذي ألف "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية"، وابن الشماع الذي ألف " الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية" والزركشي مؤلف "تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية" أما سلاطين بني مرين فقد ألف في أعمالهم ومفاخرهم "كل من ابن الأحمر" روضة النصرين في دولة بني مرين" ... إلخ، ومن هذا المنطلق في التاريخ الخاص بالسلاطين ألف التنسي "نظم الدر والعقيان"، ليبين مناقب السلطان محمد المتوكل، ويساهم هو الآخر في إبراز مآثر سلاطين أجداده من بني زيان[52].

وبهذا يكون التنسي من المؤرخين الجزائريين الذين وضعوا اللبنة لبناء المدرسة التاريخية الوسيطية. إضافة إلى هذا أنه غطى بكتابه هذا فترات زمنية من تاريخ الدولة الزيانية، خاصة تلك التي لم يعرج عليها يحي بن خلدون صاحب البغية، ويعد نظم الدر أيضا الكتاب الوحيد الذي سلط الضوء على الوضع السياسي لبلاد المغرب الأوسط خلال العهد الزياني خاصة في القرن التاسع الهجري/15م.

هذا وشارك التنسي كذلك في علم التراجم الذي يعد أحد فروع علم التاريخ بمؤلف "في إسلام أبي طالب"[53] وقد ذكر السخاوي في الضوء اللامع قائلا عنه: "وقيل أنه صنف في إسلام أبي طالب جزءا كما هو مذهب بعض الرافضة"[54]. ولكن ما يؤسف له أن هذا الكتاب هو الآن في حكم المفقود. وإضافة إلى ما سبق كتب التنسي "فهرسة"[55]، ذكرها المرحوم عبد الحي الكتاني حين ترجم للتنسي قائلا: "وله فهرسة نرويها بأسانيدها إلى أبي العباس المقري[56]، وسعيد قدورة[57] كلاهما عن عم الأول سعيد المقري التلمساني، عن أبي عبد الله

محمد بن محمد بن عبد الجليل، عن أبيه"[58] وهذه الفهرسة هي في حكم المفقود اليوم أيضا.

وفاته: هذا وبعد حياة حافلة بالعلم توفي محمد التنسي في جمادى الأولى، سنة(899هـ/1494م)، حسب ما ذكره أحمد بن يحي الونشريسي في وفياته حيث قال: "وفيها (أي سنة 899هـ)، في جمادى الأولى منها توفي الفقيه التاريخي الحافظ الأديب، الشاعر أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجليل المزالي شهر بالتنسي "[59]. كما أكد تاريخ وفاته هذا كذلك ابن القاضي في كتابه لقط الفرائد.[60]

خاتمة: نرى مما تقدم أن المؤرخ محمد بن عبد الله التنسي شخصية، لها قيمتها في تاريخ المغرب الأوسط، وهي في حاجة إلى دراسة أعمق وأوسع ويستشف ذلك من قيمة ما تركه في تاريخ هذه البلاد بمؤلفه نظم الدر والعقيان الذي عالج فيه مدة سبعين سنة من تاريخها ابتداءا من سنة 764هـ/1363م، وينتهي سنة 868هـ/1464م، وهو بهذا أثرى المكتبة التاريخية العربية الاسلامية عامة والمكتبة التاريخية الجزائرية خاصة، كما أننا نضع هذا الرجل إلى جانب فطاحل العلماء الذين خدموا سوق العلم خاصة التاريخ كعبد الرحمن بن خلدون وأخيه يحي، والزركشي، وابن الأحمر خلال القرن التاسع المجري /15م.

الهوامش:

1- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16-20م)، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1981، ج1، ص28- محمد بوشقيف: تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن و التاسع الهجريين (14-15م)، أطروحة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ و علم الآثار، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2010-2011، ص27

2- يسرى عبد الغني عبد الله: معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991، ص.11

3- عبد الرحمن بن خلدون المقدمة، اعتنى به مصطفي شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط1، 2005، ص211.

4- السيد عبد العزيز سالم: التاريخ و المؤرخون العرب، دار النهضة العربية، بيروت 1971، ص-ص66-71.

5- إبراهيم حركات مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن (9هـ/15م)،دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء،ط1، 2000، ج1، ص-ص245-256.

6- أنظر ترجمته: السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت (د-ت)، ج8، ص120-أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الدباج، إشراف و تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس ط1، 1989، ص 572- و كيافة المحتاج لمعرفة من ليس في الدباج، علق عليه أبو يحي عبد الله الكندري، دار ابن حزم للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت ط1، 2002، ص 453-القرافي بدر الدين: توشيح الدباج و حلية الابتهاج، تحقيق و تقديم أحمد الشتيوي، دار الغرب الإسلامي بيروت ط1، 1983، ص270- ابن القاضي: درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبولنوار، المكتبة العتيقة، تونس، ودار التراث، القاهرة ط1، 1971، ج2، ص143- ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، نشره محمد بن أبي شلب، و قدم له عبد الرحمن طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص248- مخلوف: شجرة النور الزكية، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1349هـ،ص267-الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، تح، محمد أبو الأجفان وعثمان بطيح، مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت و المكتبة العتيقة، تونس، 1982، ج1، ص164-165- المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق يوسف الشيخ، محمد البقاعي، إشراف مكتب البحوث و الدراسات في دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت ط1، 1998، ج3، ص178. الونشريسي : الوفيات ،

تحقيق محمد حجي، مطبعة دار المغرب للتأليف و الترجمة و النشر، الرباط، 1976، ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات، ص153. و قد ورد اسمه عنده باسم محمد بن عبد الله المزالي.

7– نسبة إلى مدينة تنس و تنس: بفتحتين و التخفيف و السين المهملة، و هي مدينة من أقدم مدن المغرب الأوسط تقع على شاطئ البحر المتوسط و قد تم تأسيسها من قبل بعض التجار الأندلسيين سنة 272هـ/875م، عنها أنظر: أبو عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، و هو جزء من كتاب المسالك و الممالك، نشره البارون دي سلان، الجزائر 1857م، ص–ص 61–63، مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر و تعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1985، ص186، عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، مكتبة لبنان 1975، ص138.

8– المقري : المصدر السابق ج6 ص 178؛ محمد بوشقيف: العلوم الدينية ببلاد المغرب الأوسط خلال القرن 9هـ/15م،مذكرة ماجيستر في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2003–2004، ص–ص 173–176.

9– التنبكتي : المصدر السابق ، ص572– الونشريسي : المصدر السابق ، ص .153

10– الونشريسي: المصدر السابق، ص153.

11– محمد بن عبد الله التنسي: تاريخ بني زيان، ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان، حققه و علق عليه محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب و المكتبة الوطنية، الجزائر 1985، ص12 من مقدمة المحققة.

12– ابن مريم : البستان ، ص 204–206.

13– القلصادي : رحلة القلصادي، دراسة و تحقيق، محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978، ص102– ابن مريم : المصدر السابق ، ص 42.

14– القلصادي : المصدر السابق ، ص 108– التنبكتي : نيل الابتهاج ، ص .521

15– ابن مريم : المصدر السابق ، ص.221

16– الونشريسي : المعيار المعرب، خرجه جماعة من الفقهاء باشراف محمد حجي، وزارة الأقاف و الشؤون الإسلامية الرباط، 1981،ج2، ص 515– ج7 ، ص 69– ج9 ، ص 232–ج10 ، ص 327

17– ابن مريم : المصدر السابق ، ص87

18– مخلوف : شجرة النور ، ص 267 – ابن مريم : البستان ، ص 45–50

19– انظر مصادر ترجمته : التنبكتي : نيل الابتهاج :، ص .511

20– ابن مريم : المصدر السابق، ص 251–252 – مخلوف : المرجع السابق ، ص .267

21– عنه انظر : ابن مريم : المصدر السابق ، ص 263 – مخلوف : المرجع السابق ، ص 268 .

22– التنبكتي : المصدر السابق ، ص .354

23– التنبكتي : نيل الابتهاج ، ص 354–356– ابن مريم : البستان ، ص 248–.249

24– الونشريسي : الوفيات ، ص .153

25– السخاوي : المصدر السابق ، ج1 ، ص 303.

26– الرداني محمد بن سليمان: صلة الخلف بموصول السلف، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي بيروت ط1988،1، ص 22.

27– توجد نسخة منها في خزانة يوسف بمراكش بالمغرب، رقم .372

28– توجد نسختين مخطوطتين من هذا الكتاب بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحمل الأولى رقم 390 و الثانية تحمل رقم 391، كما توجد نسخ أخرى من هذا المخطوط بالمكتبة العامة و المحفوظات بتطوان بالمغرب، و عدد النسخ الثلاثة الأولى تحمل رقم 316م و النسخة الثانية رقم 148م، والثالثة لم يشر إلى رقمها، كما توجد نسخة أخرى في الجامع الكبير بمكناس رقم .336

29– محمد بن عبد الله التنسي: الطراز في شرح الخراز، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 391، الورقة 140ظ ؛ حاجي خليفة، كشف الضنون عن أسامي الكتب و الفنون،دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، مج2، ص 1109 ؛ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين،مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1993، ج3، ص 381 ؛ محمد بوشقيف: المرجع السابق، ص 85.

30– ابن خلدون: المقدمة، ص .455

31– التنسي: الطراز في شرح الخراز، الورقة 140ظ ؛ محمود بوعياد: مقدمة تحقيق كتاب نظم الدر، ص 25–26؛ محمود بوعياد: آثار محمد التنسي، مجلة الثقافة، العدد 47، السنة الثامنة 1978، ص 42–43 ؛ رضا كحالة: المرجع السابق، ج3، ص 381.

32– التنبكتي: المصدر السابق، ص 573 ؛ محمد بوشقيف: المرجع السابق، ص 86.

33– المقري: نفح الطيب، ج6، ص 354 ؛ محمد بوشقيف: المرجع السابق، ص 92–93.

34– عبد الحي الكتاني: فهرس الفهارس و الإثبات و معجم المعاجم و المشياخات و المسلسلات، إعتناء إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط2، 1982، ج2، ص 618 ؛ عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 2002، ج2، ص .444

35– المقري: المصدر السابق، ج6، ص 352–354 ؛ و القصيدة من البحر الكامل.

36– محمد بن عبد الكريم: مخطوطات جزائرية في مكتبات اسطنبول، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1972، ص 15–.16

37– الروداني: المصدر السابق، ص .22

38– التبكتي: المصدر السابق، ص573–ابن مريم،البستان،ص248، محمود بوعياد: آثار التنسي، مجلة الثقافة العدد47، السنة1978، ص41 ؛ محمد بوشقيف: المرجع السابق، ص15.

39– عبد الكريم المغيلي:مصباح الارواح في اصول الفلاح، تقديم و تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1968، ص71.

40– ابن القاضي:درة الحجال،ج2،ص143 ؛ محمد بوشقيف: المرجع السابق، ص 115.

41– عبد الكريم المغيلي:المصدر لسابق،ص71–محمود بو عياد:المقال السابق،ص45–49.

42– المقري: نفح الطيب، ج6، ص 213 ؛ البغدادي اسماعيل باشا: إيضاح المكنون في الذيل على كشف الضنون، دار الكتب العلمية، بيروت 1992، ج1، ص 545 ؛ عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نوهيض الثقافية، بيروت ط1983،3، ص .85

43– حكم الدولة الزيانية ما بين 866هـ إلى 873هـ /1461–1468م ؛ التنسي: نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان، حققه و علق عليه محمود بوعياد، المكتبة الوطنية الجزائرية و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص 107–108 ؛ المؤرخون الجزائريون... التنسي: مجلة تاريخ و حضارة المغرب، كلية الآداب، الجزائر، العدد 05، السنة جويلية 1968.

44– أبو عبد الله التنسي: نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية رقم 2536، الورقة 4 و، أبو عبد الله التنسي: تاريخ دولة الأدارسة (من كتاب نظم الدر و العقيان) تحقيق و تقديم عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص19 من مقدمة المحقق.

45– محمود بوعياد: مقدمة تحقيق كتاب نظم الدر و العقيان، ص–ص 38–53.

46– قام الدكتور عبد الحميد حاجيات بتحقيق هذا الباب و عنونه بتاريخ دولة الأدارسة (من كتاب نظم الدر و العقيان).

47– من المستشرقين الذين اهتموا بهذا الباب من نظم الدر و العقيان للتنسي المستشرق الفرنسي الأب برجيس الذين ترجمه إلى اللغة الفرنسية و نشره بعنوان:
Barges :histoire des béni-zeiyan, rois de tlemcen

48– محمود بوعياد: آثار محمد التنسي مؤرخ بني زيان، مجلة الثقافة، العدد 47، السنة نوفمبر 1978، ص .40

49– خص الجانب الأدبي من كتاب نظم الدر و العقيان لمحمد بن عبد الله التنسي بالدراسة و التحقيق و التعليق بوطالب محي الدين و نشره تحت عنوان نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان (الجانب الأدبي) و نشره سنة 1993م ضمن منشورات دار دحلب.

50– عبد الحميد حاجيات: من مقدمة تحقيق الفصل الخاص بالأدارسة، ص24.

51– نفسه، ص24.

52– نفسه، ص26.

53– محمود بوعياد: آثار محمد التنسي مؤرخ بني زيان، مجلة الثقافة، العدد 47، السنة نوفمبر 1978، ص40.

54– السخاوي: الضوء اللامع، ج8، ص .120

55– ابن مريم: المصدر السابق، ص 284 ؛ الكتاني: فهرس الفهارس، ج1، ص 194 ،عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص 85 ؛ محمود بوعياد: مقال آثار محمد التنسي مؤرخ بني زيان، ص 41 ؛ ومقال الحافظ التنسي مؤرخ المغرب الأوسط، ص .14

56– صاحب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.

57– من علماء الجزائر العثمانية، ولي الإفتاء بالجزائر العاصمة وتوفي سنة 1066هـ–1656هـ، عنه انظر: المقري: رحلة المقري إلى المغرب و المشرق، تح محمد بن معمر، منشورات مكتبة الرشاد للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر 2004، ص 74.

58– الكتاني: المصدر السابق، ج1، ص .194

59– الونشريسي : الوفيات ، ص .153

60– ابن القاضي : لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد، تحقيق محمد حجي، مطبعة دار المغرب للتأليف و الترجمة والنشر، ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات، الرباط 1976، ص 274.